الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

علي محمود خضيّر

الحياة بالنيابة

شِعر



الحياة بالنيابة

الحياة بالنيابة

شِعر

علي محمود خضيّر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0797-7

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

إِلَى روان مَرَّة بعد مَرَّة

خطاطة أولى

أنت،

يا مَنْ تَشْبَهُني

ولا أعرِفُك

لَكَ كُلُّ هَذِي الرَّسائلِ والخطاطات

كَيْ لا نَظَلَّ وحيدَينِ

فِي مركبِ العَالَم.

الحَيَاةُ بِالنِيابَة

هَذِهِ أغلالُكَ الَّتِي تَطِيرُ بِها
هَذَا سُمُّكَ الَّذِي تَنْمُو بِهِ
هَذِي إشاعتُكَ الَّتِي تَنْجُو لأجلِها

أنْتَ تَعيشُ حَياتَكَ بِالنِيابةِ.

تَخُونُ نَفْسَكَ
تَخُونُ الأشياءَ الَّتِي
تَتَنفسُكَ.

تَخُونُ ضوءَ الشَّمسِ الَّذِي
يَسقُطُ
فَوْقَ طَاولتِكَ.

تَخُونُ القِطّةَ الَّتِي تَموْءُ وَحِيدةً فِي الحَدِيقةِ،
وأوراقَ السِّدرِ
الَّتِي تَسّاقطُ مُنْذُ يومينِ
وماءَ الحنفيّةِ العاطلةِ،
مَهدوراً،
خَلفَ البَيْتِ
وعاملَ الكهرباءِ الَّذِي اصْطَنَعْتَ لَهُ ابتسامةً.

أَنْتَ تَخُونُ نَفْسَكَ فِي الأشياءِ
ترسمُ بئْراً
تمتدُّ لِبَطْنِ الأَرضِ، لِتَرميَ فيها
قَلائِدَ خروجِكَ الـمُتكررِ مِنَ المـَوْتِ
تَرْمِي قِلادَةَ الحَرْبِ
قِلادَةَ الغازِ السّام
والرّصاصِ المـُـــلَثَّم.

قِلادَةَ الَّذِينَ غابوا
قِلادَةَ المـُنتظرين.

أفضلُ خياناتِكَ
أنَّكَ تَرَى العَالَمَ كما تَشاءُ
لا كما هو.

تُغَافِلُ الحَواسَّ،
تُخدِّرُها
تَمْتَصُّ مَصْلَ بُرهانِها عليكَ.

تَأْتَلِفُ مَعَ النِظامِ الكبيرِ
لِتُفرِّطَ بِفرصتِكَ الأخيرةِ
فِي أنْ تكونَ سيّدَ نَفْسِك.

إنَّكَ تَتَوهمُ بِشكلٍ جَيِّد
جَيِّدٍ بما يكفي لِفراشة.

الذاتُ الَّتِي تَتَجَمَّعُ كحبّاتِ البِلَّوْرِ
تَلتئِمُ كجُرْحٍ.
الذاتُ المبذولة.
الذاتُ الـمُكذَّبَة.
الذاتُ، تُحاصِرُكَ فِي سريرِكَ، تَسألُ:
أينَ ضَيَّعنا؟
أينَ ضُيِّعنا؟

فِي كفَّيكَ تَنامُ ذاتُكَ
فَوْقَ كتفِيكَ رُبَّما
أو عَلَى لِسانِكَ
لَكِنَّها، أبداً
تَفْلِتُ مِنْ عَيْنَيْك.

هَذِهِ أغلالُكَ الَّتِي تَطِيرُ بِها
هَذَا سُمُّكَ الَّذِي تَنْمُو بِهِ
هَذِي إشاعتُكَ الَّتِي تَنْجُو لأجلِها

تُرَتِّلُ لحظَتَكَ
تَلويها
تُقَطِّعُها
لِتَنْجُوَ اللَّحظَةُ مِنْ موتِها.

تُطِلُّ عَلَى الذاتِ
كمَنْ يُطِلُّ عَلَى العَالَمِ مِنْ شُرفةٍ زجاجيةٍ عالية
نَاسٌ يَمْشُونَ كنَملٍ أعمى
أضواءُ سياراتٍ تُومضُ سريعاً
مثل قَلْبِكَ المريضِ بِالتَخلّي
الإعلاناتُ هندسةٌ تشتعلُ
أَعْمِدَةُ الكهرباءِ صُلْبانٌ ناقصةٌ
تماماً
مثلُ
ظِلِّكَ.

قويٌّ بِذاتِكَ الضَّريرةِ
ذاتك الَّتِي تَنزِلُ بِئْرَ العَالَمِ وحيدةً وواهنة
قويٌّ بِسأمِها الأبديّ
بِضحكِها السِريِّ مِنَ السَّعادةِ
بِلِسَانِها الممدودِ لِضَرَباتِ الفُؤوس.

قويٌّ بذاتِكَ الضَّريرة
ذاتك الَّتِي تَنْزِلُ بِئْرَ العَالَمِ
وحيدةً
وواهنة.

النَّفْسُ لا تسمعُ إِلَّا نَفْسَها

اللَّيلُ الضاغطُ عَلَى البُيُوتِ والحاراتِ
يُوشِكُ أنْ يُطبِقَ عَلَى الأنفاس.

اللَّيلُ هَذِهِ اللَّيلةَ
يُغلِقُ مساماتِ الهَواءِ عَلَى الهَواء.
يَسُدُّ الوَقْتَ أنْ يَمْضِي.
يَسُدُّ بابَ الزَّمَن.

كُلَّمَا صِحتُ بِنفسي:
أدركتُ أنَّ سُلطانيَ كاذبٌ،
وأنَّ النَّفْسَ لا تَسمعُ إِلَّا نَفْسَها.

مَن أنا فِي هَذَا اللَّيلِ أَيَّتُها النَّفْسُ الجاحدةُ؟
أينَ أملاكيَ مِن الكلامِ الرَّهيفِ
الَّذِي وَزَّعتُهُ عَلَى الآخرينَ
فما أعْطَوْني إِلَّا صَمْتَهم؟
أينَ صُراخيَ فِي مراياهُم الَّتِي أُعلِّقُها عَلَى الجُدرانِ؟

إنني الآنَ أُقيمُ فِي ساقيةٍ واحدةٍ
يَمُرُّ فيها أشباحُ مَن مَرُّوا عَلَى حياتي فأَفسَدُوها
لا أُريدُ منهم سِوى أنْ يتركوني.
لا الحَيَاةُ صديقتي
وهي لَيْسَتْ بِصَديقةٍ لهم بِالضرورة.
أعرِفُ هَذَا وأحفَظُهُ عن ألم.

أَقُولُ لهم اتركوني لكِنِّي لا أَقُول،

إنني أهذي مَعَ نفسِي ومرآتِها،

حسبيَ أَنَّ المـِرآةَ تُفضي إِلَى نافذةٍ

حسبيَ أنني أَجْلِسُ فِي ساقيتي وحيداً

أَنُوءُ بِثِقْلِي

وإنّي لا أُكَلِّفُ أحداً شيئاً

وإنّي لو فَرَرْتُ إِلَى موتي سأكونُ مُطمئِناً وهادئاً.

حسبيَ أنّي لا أُكَلِّمُ أحداً

فأُثقِلُ عليهِ.

شاردٌ فِي لحظتي،
مُستغرِقُ الذِكرى بِمَن مرّوا،
مُستغرقٌ بِالنسيان.

إنني هُنا خَفيفٌ إِلَّا مِنْ روحي.

مَنْ أنا فِي هَذِهِ اللَّحظَةِ الواحدةِ
الَّتِي تُكررُ نَفْسَها آلآفَ المرات؟

كيـفَ اجتمعـتُ بِـكُلِّ أشـياءِ بيتـيَ هَـذِه: الكراسـي والشَّراشـفِ وشـقوقِ الحيطانِ وأسـلاكِ الكهرباءِ ولوحةِ دالي المـُزَيَّفةِ والطَّابعةِ اللّيزريّة والمِدْفأة؟

كيفَ اجتمعتُ بِالشَّارع الَّذِي يَضيقُ عَلَى نَاسِهِ
كُلَّمَا قَبَضَ الوَقْتُ بِياقةِ النَّشوة؟
كيفَ اشتَمَلَ عليَّ هؤلاءِ
ومِنْ أينَ جاؤوا وتجمَّعوا حولي؟

إنني لا أُريدُ أحداً

فِي لحظتي الخاصةِ هَذِه،

أُريدُ جسَدي وروحي

سالميْنِ

مِنْ شَظِيَّةِ الماضي.

أَجْلِسُ فِي السَّاقيةِ
أُقلِّبُ جَمَراتِ المـَوْتَى الَّذِينَ ذَهبوا،
أستعِيدُ صوراً التقطتُها لهم
يَبدون فيها راضينَ ومُبتسمينَ عَلَى الدَّوام،
أُعددُ ثُقُوبَ قَلْبي الَّتِي صَنعوها لحظةَ رحيلِهم،
أَقُولُ لِنَفْسي:
لَنْ نُكلِّفَ الآخرينَ ثقباً واحداً أَيَّتُها النَّفْس،
لَكِنَّ النَّفْسَ لا تَسْمعُ إِلَّا نَفْسَها.

أُقلِّبُ بِيدي جَمَراتِ الأَحيَاءِ الَّذِينَ يَبدون كأنَّهم أحياءُ
وقريبونَ
كأنّكَ تَلْمسُهُم إنْ شِئتَ،
لَكِنَّنا نَتجَاهلُ بعضنَا،
نَذْهَبُ بعيداً عن بعضِنا،
نَتِيهُ بِألعابِ الحَيَاةِ الصَّغيرة،
ننسى،
ننامُ،
فإنْ تَقابَلْنا فكلامُنا الْأَذَى وأفعالُنا الألمُ
وإلّا فَنَحْنُ نَسّاؤونَ ونِيام،

أُقلِّبُ جَمَراتِ الأَحيَاءِ والمـَوْتَى وأَقُولُ لِنَفْسي:
هَذَا مقعدُكِ مِن النَّاسِ
فاشْتَمِلي عَلَى الصَّمت
واُترُكِي البابَ مُوارِبَاً
واُترُكِي الشَّبابيكَ مَفتوحةً للندم.

أعرِفُ أنَّ سُلطانيَ كاذبٌ
وأنَّ النَّفْسَ لا تَسْمعُ إِلَّا نَفْسَها
وأنَّ كلاميَ الرَّهيفَ
قد يَنساهُ مَنْ مرُّوا عَلَى حياتي فأفسَدُوها
لَكِنِّي لا أُريدُ منهم
فِي هَذِهِ اللَّحظَةِ
الَّتِي تُكرِرُ نَفْسَها الآفَ المراتِ
سِوى أنْ يتركوني.

الّذِي لا يَنسى

لا بابَ
لَكَ اللَّيلةَ كي تُوصدَهُ
ولا سِتارَة
تُواري سوءةَ فَـزَعِكَ.

خوفُكَ أعمقُ
مِنْ أنْ تَحشُرَ
أصابعَكَ الراجفةَ فِي أُذنيكَ.

فكابُوسُكَ لَنْ يَنتهِي.

خَوفُكَ – أنْتَ،
رصاصةٌ ضَلَّها مِشرَطُ الطَّبيبِ،
نفقٌ مُظلمٌ لَيْسَ الضَّوءُ آخرَهُ،
إبرةٌ باردةٌ تَسربت لَيلاً إلَى النَّهْر.

خَوفُكَ – أنْتَ.
ولا بابَ لَكَ اللَّيلةَ ولا سِتْار.

وما جَدْوَى أنْ تَخافَ

فتُصدم

بِرفقةٍ يَضحكونَ بِأسنانٍ تتساقطُ.

بِأقنعةٍ

نَتِنَ الجِلدُ تحتَها.

بِماءٍ

لا ماءَ فيهِ ولا سَرَاب.

بِحقيقةٍ ميتة.

ولو شِئتَ

لَجعلتَ

عَلَى خَوفِكَ حارساً

حارساً عَلَى سَلامِكَ فِي عيونِهم

سلامٌ أبديٌّ

لا تهزّهُ مُلابساتُ قِيَامَتِهِم وأهوالُها.

حارساً عَلَى روحِكَ،

هائمةً،

تحرسُ أرواحَهُم

حارساً عَلَى نَفْسِكَ
إذْ نَفْسُك
ملاذُهُم وهم يُهرَعون

لَكِنَّكَ لَنْ تَفعل.

ولو كَانَ خَوفُكَ أنْتَ
مَاذَا سيبقى لهم؟

قُمْصَانُكَ،
تحوي أشباحاً بِيضاً لا تُرى؟

نظّارتُكَ
تَحجبُ شيبَ الوردِ وبُكاءَ الزَّوايا؟

إيقوناتٌ

لِفوانيسَ

ذابلةٍ

لَكِنَّها

نابضة.

مَاذَا سيبقى؟

صَوتُكَ

إذْ أصواتُهُم تَملأُ قَلْبَكَ صمتاً

كوابيسُ طازجةٌ

لا تعني أحداً

أصدقاءُ كَذَبَةٌ
لا تُبْكِيهُم الوداعاتُ

وصِياحُ حمائمَ يَفتحُ فِي الذاكرةِ رَمْلَ الظَّهيراتِ

أشياءُ هائلةٌ
لَكِنَّها صغيرةٌ
لِدرجةِ أنْ لا أحدَ يُعيرُها اكتراثَه.

فِي النِّهايةِ
لا مَناصَ مِنْ اعترافٍ بسيطٍ:
إنَّ ما يُتقِنُهُ الوَقْتُ..
لَيْسَ سِوى تَذكيرِكَ
كُلَّ مَرَّةٍ
كم هو هَشٌ
وابنٌ وفيٌ
للسَّرَاب..

مَاذَا سيبقى لَكَ إذَن؟

فِي الظِّلِّ العميقِ لِوحدتِكَ المؤبَّدةِ

لَيْسَ مِنْ حقيقةٍ

إلَّاها

تِلكَ البِئْرُ المنسيّةُ داخلَ روحِكَ،

بِئْرٌ

لا تُطفِئُ

ظَمَأَهَا

آفاقُ بحورهِم الحاشدة.

كَانَ عليكَ أن تَعرِفَ
كَانَ عليكَ أن تُطفِئَ أنوارَ بيتِكَ عَلَّكَ تُخادِعُهُم
كَانَ عليكَ أن تُموِّهَ الطُرقاتِ رُبَّما يُخطئونَ رأسَكَ
كَانَ عليكَ أن تَنْقُلَ المدينةَ محلّةً محلّةً وشارعاً شارعاً
رُبَّما يَشتهونَ الخريطةَ قَبل أنْ يَشتهوك.

رُبَّما كُلُّ ذلكَ...
إذْ لا يَعنيهِم،
أنَّكَ تخافُ،
وأنْ لا بابَ لَكَ
ولا سِتْار.

تُفَّاحة خضراء

فيمـا نقضِـمُ اللَّيـلَ كتُفَّاحـةٍ خضـراءَ.. هـل أُحدِّثُكَ عـن الأُمِّ؟ عـن الضَّوءِ الخفيضِ فِي زاويةِ قَلْبي المثقوبِ كالينابيعِ. عن اللَّيالي الَّتِي قضّيتُها هُناكَ، فارشاً أحشاءَها كمَا أشاءُ؟

لكِنِّـي لا أذكـرُ شـيئاً، مِـنَ الصَّعـبِ التذكّـرُ عَلَى أيةِ حـالٍ، صَعْـبٌ أن أعـرِفَ كم مَرَّةٍ ضَرَبْتُ كُلْيتها اليُسـرى وَخَضْخَضْـتُ حصَاتَهـا الصَّغيرةَ. كم مَـرَّةٍ ضايقْتُ رئتيهَا فاسـتيقظتْ كعَمُـودٍ رومانـيٍ تَحـرِسُ ظَلامـي. لا أعرِفُ كـمْ شَـعرتُ بِالغربـةِ. لا أعرِف كمْ شـعرتُ بِالوحدةِ. لا أعـرِفُ إِن كانـتِ الأحـراشُ الَّتِي تدفـأتُها طَيِّبةً وهادئةً أم خانقـةً ومُلِّحـةً. لا أعـرِفُ غيـرَ أني انتظرتُ فِي سَـديمِها تِسـعةَ أشـهرٍ لأنزِلَ فِي يومِ عيدٍ، فِي صالةٍ عاديّةٍ إِلَّا مِن صُراخِها وآلامها المـُفزعةِ،

إِلَّا مِنْ صُراخيَ الَّذِي شَقَّ قُروحاً فِي سَقفِ الصالةِ المرتفعِ، إِلَّا مِنْ بُكاءٍ مُرٍّ لا أذكُرُ سببَهُ أَيْضاً.

رُبَّما لأنَّ الضَّوءَ كَانَ أكثرَ مما توقّعتُ

رُبَّما لانَّ الهَواءَ كَانَ أكثرَ مما تنفستُ

رُبَّما لأني لم أشأْ أنْ أُولدَ

رُبَّما حُزْناً ما كَانَ يجعلُ هَذَا الصُراخَ منطقياً.

هَذَا ما قالوا،

أنا لا أتَذكّرُ شَيئاً الآن..

الأُمُّ الَّتِي تُشرِقُ عليها شمسٌ جديدة اليومَ، الأُمُّ الَّتِي تنشَطرُ أثنينِ فيضيعُ مكانُ قَلْبِها، الأُمُّ الَّتِي يُرطِّبُ الحليبُ قُمْصانَهـا البيـضَ، تَرجِفُ الآنَ، ترتبِـكُ، تُدرِّبُ يَديّها أنْ تَصيرَ مَهداً، تجَهدُ ليكونَ عفوياً كعينِيها.

تُرتِّبُ اللَّيلَ الأوَّلَ مِنْ حَولي، تَنشُّ الذبابَ والضَّوءَ السـاطعَ، تَضعُ قُرآنَها تحتَ الفِراشِ لئلا تأتي شـياطيني باكـراً. تتدبَّـرُ فوانيـسَ أيامـي اللاحِقـةِ، تتدبّـرُ السَّـاعاتِ الأولى، اللمسةَ الأولى، القُبْلَةَ، الرائحةَ..

تُدبّرُني،

تَصيرُني.

أفكِّرُ فِي تِلكَ الأُمِّ الآنَ..

فِـي الأخاديـدِ الَّتِـي حفرتْها التقاويمُ بِيـدِ الغَفْلةِ، فِي الجسَـدِ المتهالكِ والوقفـةِ الواهنةِ، فِي الحروقِ الصَّغيرةِ مِـنْ زَيـتِ مطبخِهـا الفائرِ، فِي السَّـكاكينِ الَّتِي تَوَسَّـدتْ راحتيها أكثر مما تَوَسَّـدتْها يَداي، فِي القُدُورِ الَّتِي تعتني بها، سـجادةِ الصَّلاةِ، عُطورِها وبَخُورِ المسـاءاتِ، مِرآتِها المكسـورةِ، رِعـدَاتِ خوفِهـا وغيرتِهـا، سُـقمِها ومَعنـاهُ، ألوانِها بِداخلي، لُغَتِها الَّتِي كانت،

أفكّرُ فِي قاموسِ الأَيامِ،

فيما عَرَفتهُ سابقاً وما لم أعرِفْهُ.

اللَّيـلُ نصـفُ تُفَّاحةٍ خضـراءَ مهدورةٍ للفجـرِ، اللَّيلُ يلتبِـسُ علـيَّ الآنَ.. يَصيـرُ نهـاراً أو سَـديمَ وقـتٍ، أُفكّرُ فِي كُلِّ الأمهاتِ، سـريعاتِ المرورِ ومُعَمِّرات الظِّلِّ، مَنْ تَملكْنَ أطفالَهنَّ ومَنْ يَشْتَري أمومتَهنَّ العابرونَ.

أَنْتَ أَيْضاً فِي داخلِكَ أمٌّ كالَّتِي تَخفِقُ فِي داخلي، فِي قَلْـبِ كُلٍّ منـا أمٌّ كاملـةٌ يا صاحبـي، أمٌّ نُفرِّطُ فيها لِنكونَ بيادقَ حروبٍ، فابحثْ عن أمِّكَ فيكَ،

فِي ظَلامِ روحِكَ الخاسرة.

مَاذَا بعد؟ يقولُ صاحبي

- لم تَعرفْ بشأنِ دفاتري الَّتِي رسمْتُ فيها أمَّهاتٍ كثيراتٍ: مَنْ أحببتُ ومَنْ فَشِلتُ فِي ذلكَ فتجَاهلْتُ الأمرَ

رسمتُهنَّ يَصنعنَ الصَّباح بِأصابعِ عازفِ العودِ

رسمتُهنَّ يَصبغنَ رأسيَ بِالأبدِ

رسمتُهنَّ لا يبصِقْنَ

رسمتُهنَّ مِنْ دونِ سكاكينِ نارٍ لأنَّنا نبولُ بِغيرِ إرادتِنا

رسمتُهنَّ لا يُمَزقنَ كِتابَ القِراءةِ دونَ سببٍ

رسمتُهنَّ مِنْ دونِ حبالٍ

ومِنْ غيرِ أعمدةٍ خشبيةٍ تصلُحُ للحبسِ.

كنتُ رسَّاماً جيِّداً

وكانتِ

الرِّيحُ

عَمْياءُ.

يقولُ صاحبي:

لا معنى لهَذَا الآن. جائعٌ أنا، فهاتِ ما فِي ثَلاجتِكَ.

- لَيْسَ سِوى تُفَّاحةٍ خضراء.

الّذِي يمشي فِي رأسك

يحدثُ أن يَدخُلَ فِي رأسِكَ، ماشياً بِتثاقلٍ وحلقاتُ الدُّخانِ تَتَموجُ مِنْ حولهِ، ومَعَ ارتيابِكَ لكِنَّكَ تُمهِلهُ حَتَّى يجلسَ عَلَى كرسيِّ الشَّهادةِ، مُخرِجاً وَرَقةً مُجعّدةً، وَرَقةً لا تُريدُ أن تَعرِفَ أسـماءَ من سَـقَطوا مِنْها، لا تُريدُ أَيْضاً أن تتركَهُ هارباً فذاكَ لَنْ ينفعَكَ، قد انتظرتَهُ حَتَّى فَرِغْتَ مِن الانتظارِ وكَتبتَ اسمَهُ عَلَى جذوعِكَ بحبرٍ لا يُضيءُ إذْ لا تُضيءُ سِوى سَبَّابتِكَ.

وأَنْتَ تُسلِّمُ نَفْسَكَ لِصوتِهِ المثلومِ، يَنهضُ مَرَّةً ثانيةً

تاركاً

كرسيَّكَ

الَّذِي

ظَلَّ

يَهتزُّ

بِثباتٍ

مُفزع.

مُتجهاً إِلَى كوّةٍ أقصى رأسِكَ.

يُفزِعُكَ أن تراهُ خُفَّاشاً يَخرجُ مِنْ أحداقِكَ.

مَنْ مَشَى فِي رأسِكَ أو طارَ مِنْ أحداقكَ خُفَّاشٌ يَملأُ أُفُقَكَ بسُعال مشاع يُرطِّبُ لعابُهُ قُمْصانَكَ ولا تراهُ، يَلبطُ فِي جيوبِكَ ولا تُمسكُهُ، يَنامُ فِي فراشِكِ ولا دفءَ عَلَى الأَرائِكَ.

يَجلِسُ عَلَى كراسِيكَ، يَمسُّ مقابضَ الأبوابِ، الأقداحَ والسَّكاكين وأوعيةَ الطَّعام، عُلَبَ الأدويةِ والأقراصَ المدمجةَ الكئيبةَ فِي الأدراجِ.

مَنْ مَشَى فِي رأسِكَ مُتَمَهِّلاً يُؤجِّجُ حرائقِكَ ويَحبِكُ الأحاجي.

مَنْ أفردَكَ مَغْلُوباً عَلَى حزنِهِ؟

مَنْ فَتَنَ الفؤوسَ بِأشجارِكَ الصَّائمةِ؟

مَنْ خَتَمَ عَلَى شُبهاتِكَ لتصيرَ حقيقتَكَ الواحدة؟

كُلُّ ما حولَكَ
يَقولُ: ما انتظرتَهُ ستلقاهُ

سَتلقاهُ واحداً
سَتلقاهُ وحيداً
مُنْفَلِتاً مِنْ مَسارِبِ الحكايةِ الَّتِي أرهقتْكَ طويلاً
ستلقاهُ مريضاً بِعافيةِ الشَّكِ والرِّيبةِ
بِمداولاتِ الحقيقةِ والوَهْمِ
بِساعاتٍ أنفقْتَها
فِي عدٍّ ما تساقطَ عَلَى جانبي الطَّرِيق.

مَنْ مَشَى..

تخشاهُ

تخشى براهينَهُ،

تخشى صُورتَهُ فِي مرآتِكَ،

تخشى ختْمَ أصابعهِ عَلَى وجوهِ مَنْ تُحِبّ،

كُلُّ مَنْ تُحِبُ نهبٌ لأصابعَ لا لونَ لها،

كحوافرِ غَيْمةٍ مُسرعةٍ.

وإنْ قُلتَ لنَفْسِـكَ أكثرَ مما تمنحُهُ الرِّيحُ هَذِهِ الأَيامِ تكـونُ قـد أرخيتَ شـبابيكَكَ لعصْفِ الماشـينَ القدامى، الملعونيـن بِأسـرارِهم الخبيئـةِ، فِـي الصُّنْـدوقِ الـمُقفـلِ عَلَى رُفات قُبّرات وَحَمامٍ وعصافيرَ وصُقورٍ مُزِّقَ لحمُها وخُلِـطَ، فاختلطَـتْ بعدَهـا أنهـارٌ وبحيـراتٌ وبُحـورٌ فِي قُمْصانِ الرِّيحِ الَّتِي تَرتدِيكَ.

لكِنَّ الرِّيحَ

لكِنَّ الرِّيحَ مملّةٌ بما يكفي

هذِهِ الدَّوائِرُ الَّتِي لا تَكُفُّ عن الدَّوَرانِ حولَكَ وحولَ

من تُحِبُّ

تدورُ

تدورُ

وتدورُ.

مملّةٌ تلك الدَّوَائرُ الَّتِي تتفيأُ المـُدُنَ

تنصبُ فِخاخَها فِي الـمُنعطفاتِ

خَلفَ المدى الَّذِي لا يُنالُ، تنشرُ شِباكاً لا تُرى.

مملّةٌ تموّهُ نَفْسَها مَرَّةً تلوَ مَرَّةٍ.

تُؤجّلُ كما تشاءُ، وتُقدّمُ كما تشاءُ.

لها

لأسمائِها الـمُلتبِسةِ

لِسكاكينِها الَّتِي فِي ظهورِنا أبداً

لِغيبِها الدائِمِ

لمداخِلِها العَمْياء

كُلُّ هَذِهِ النُّذورِ اليائسةِ

نُذورٌ تنتظرُ سكاكينَ

مَنْ مَشَوا فِي رؤوسِنا فملأوها رُعباً.

يُبدِّل اللّيلُ صِفاتِهِ

رُبَّما لَيلٌ جديدٌ

يأتي صوتُهُ

مِنْ وراءِ شارعٍ أو شارعينِ

يَدخلُ عليَّ مِن الشباكِ

يَدخلُ مِن الحائطِ

رُبَّما لَيلٌ جاهزُ العُدّةِ

مُهيَّأٌ لكلِّ أسئلتي

أكادُ أسمعُ صَوتَهُ

يَخرقُ الشباكَ والحائطَ السميكَ

ويَجلسُ، عَلَى أريكةٍ، أمامي.

السَّاعةُ الَّتِي لَمْ تملَّ السيرَ،
السَّاعةُ الَّتِي شاختِ البارِحَةَ
وهي تعبرُ السنةَ القديمةَ،
تدقُّ.

وأنا، فِي انتظارِ أنْ يَنطقَ اللَّيلُ الجديدُ
عدَّلتُ جلسَتي
وأَنَرْتُ مِصباحاً إضافياً
وأرخيْتُ السَّتائرَ فِي رأسي
فاللَّيلُ لن يَصمتَ طويلاً
والعاصفة ستبدأ.

هواءُ الغرفةِ يَمتصُّ سريعَ زفراتي
والمدفأةُ تَطبعُ قُبلاتٍ صُفراً عَلَى غُضُونِ وجهي
وأنا ثابتٌ عَلَى الاريكةِ
أتطلّعُ بينَ حينٍ وحينٍ لِعَيْنَيّ الزائرِ الثاوي

رُبَّما كَانَ لَيلاً جديداً؟

يُكررُ اللَّيلُ نفسَهُ حَتَّى يَحفظَهُ النَّاسُ، ويخزنوا تقاسيمَ وجهِهِ فِي الذاكرةِ، فتصيرُ صفاتُهُ مشاعاً وتألفُ الأرواحُ أنفاسَهُ، وتأمنُهُ الزَّوايا، هكذا يَتَوحدُ اللَّيلُ وصاحبُهُ، ويتداخلان.

ليالٍ جديدةٌ كانتْ تمرُّ
حين كُنتُ طِفلاً عند جدَّتي وخالاتي

ليالٍ تركتْ عَلَى مسلَّتي أختامَها
لا حرائقَ فيفسِدَها الوَقْتُ
ولا صُراخَ فينهبَهُ الهَواءُ
ليالٍ جديدةٌ حقاً!
لكِنَّ اللَّياليَ الجديدةَ جافتْنا
وأفلتتْ
حَبْلَ
المسَّرة.

لا يُكـررُ اللَّيـلُ نفسَـهُ حَتَّـى ينسـاهُ النَّـاسُ، وتنقســمُ تضاريـسُ وجهِـهِ فِـي وديانِ الرُّوحِ فتضيـع، تصيرُ صفاتُهُ متاهةً وأنفاسُهُ أرواحَ شياطين، كُلُّ رعبِ الزَّوايا لا يُعادِلُ لحظةَ أنْ تبصِرَهُ بِعينيكَ مَرَّةً واحدة.

وإذْ كَبُرَنا فجأةً
وصارتِ الفِضَّةُ تبيتُ فِي رؤوسنِا
ونسينا أنَّ لليالي لَيلاً جديداً
عِنْدَمَا مَرَّتِ الأَيامُ
وتلاشتْ
كعُواءِ كلبٍ عَلَى رابيةٍ آخرَ اللَّيلِ
رجِعنا إِلَى جَدَّاتِنا والخالاتِ
بِذوائبَ
كالرّصاصِ

وقُلُوبٍ خشبيةٍ

وأصابعَ تسعلُ خطيئةً

لَكِنَّنا،

مُصادفةً،

لم نجدْ أحداً

لم

نجد

أحداً

عَلَى الإطلاق.

يغيبُ اللَّيلُ لِيَضربَكَ ساعةَ لا تشعر.

خادمُ الحَيَاة

أنا خادمُ الحَيَاةِ
كُلَّمَا ألقَتْ عَلَيَّ حَجراً
أفردتُ ذراعيَّ مِنْ دونِ احتجاج
وكُلَّمَا شكّتْ فِي نافذتي إبرةً
رَسَمْتُ مَسافةً للقادمينَ بِرفقتي.

أنا خادِمُها الَّذي لا يَئِنُّ
الأنينُ لا أعرِفُهُ،
لَكِنَّهُ يَتَذكرُني.

الأنينُ خادِمٌ يَبْكَي كُلَّمَا تَذكّرَ أنّهُ خادمٌ
وأنّهُ لا يَعرِفُ مِنْ سادتِهِ إِلَّا وجوهاً بَضّةً،
وأياديَ ناعمةً كالسَّكاكين،
ومسافاتٍ لا شِفاءَ مِنها.

الأنينُ أنا أو أَنتِ
أو ما تَشَابهَ بيننا ذاتَ ليلةٍ،
مُصادفةً،
فَسَقَطْنا إِلَى البِئْرِ ممسوسينِ
بِشَيءٍ يُسمونهُ الحُبَّ أو ما يُشبِهُهُ

لمْ نَعرِفْ حينها ما هو
ولم نكنْ لِنُريدَ أنْ نَعرِف.

أنا خادمُ الحَيَاةِ الأمين

سَمْعِتُ أطفالاً يَصْرُخُونَ عَلَى بعضِهم فِي الساحاتِ فيما اللَّحظَةُ تَجرُّ أُختَها، خادعةً، فَيَكْبُرُونَ بِالمُصادفةِ ويَكتشِفُونَ ثوبَ أيامِهم المثقوبَ بِإبرةِ اللَّحظَةِ الماكرةِ. وكُنتُ أميناً عَلَى التذكّرِ.

رَأَيْتُ أشباحاً لا صِفات لهم.
وجوهُهُم جامدةٌ وضِفافُهُم لم يَطأْها الدَّمْعُ.
فراجيلُهم رمليةٌ، أُمّاً وأبنها شاخصينِ ومُحنَّطين،
كمَنْ يَقفُ لالتقاطِ صُورةٍ مُجبراً.
وكُنتُ أميناً عَلَى النِّسيان.

رَأَيْتُ جُنْدِياً مَيتاً

نصَّفَتْ جُثَتَهُ شَظِيَّةُ الحربِ

يُغطيّهِ دِثارٌ ثقيلٌ

أصابعُهُ يابسةٌ

وحَولَهُ تَحلَّقَ عُجُزٌ يَحتسُونَ الشايَ فِي نيسان.

وكُنتُ أميناً عَلَى ما تكَسَّرَ مِنْ روحي.

رَأَيْتُ قَلْبيَ
يَطُوفُ عَلَى قُلُوبٍ كثيرةٍ
تَراهُ ولا تَراهُ
كانتِ القُلُوب مغلولةً وعَمْياءَ
تُسيءُ الظَّنَّ بِيدهِ الممدودةِ
وتُلطِّخُ قُمْصانَهُ بِالكَذِبِ
وكَانَ أَذانُ النَّدَمِ يَمرُّ مِنْ جانبِهم
فتغلِبُهم نشوةُ القابضينَ عَلَى الحَقِ
وكُنتُ مُّؤمناً بِنصيبي مِنَ الخُسران.

ألَمْ أَقُلْ إنيّ خادمُكِ أَيَّتُها الحَيَاةُ الجاحدة؟

أُنْظُرِي لِهَذَا الألَمِ الشاسعِ
أُنْظُرِي لما رويتُهُ
وما نسيتُهُ وأنا أروي
وما لَنْ أرويه أبداً

اُنْظُرِي مَعَي لحُبٍّ خاطِئٍ
لأطفالٍ يَصْرُخُونَ عَلَى بَعْضِهم
وأشباحٍ لا صِفاتِ لهم
اُنْظُرِي إِلَى نِصْفِ جُنْدِيٍ ميت
واُنْظُرِي لي
أنا اللامبالي الَّذِي يُمثّلُ السَّعادةَ
كَيْ تَسترِيحَ السَّعادةُ مِنْ إحراجِها.

سأسأَلُكِ بَعدَها، يا حَياةُ:
بِأيِّ عَتَمةٍ تُخيفينَا ونَحْنُ مُلُوكُ كُلِّ هَذَا الضَّوءِ؟

لا فِكرةَ عن الوهم

مَنْ غيرُكَ؟
يا سَاكِنَ الدُّرُوبِ كُلِّها
ومُفترشَ الآفاقِ؟

مَنْ غَيرُكَ؟
يا مُهندسَ الحكايةِ
حَتَّى نِهايتِها
تَحُوكُ للإنسانِ
قَميصَهُ الوحيدَ، الأبدي.

كُلُّنا أبناؤُكَ
كُلُّنا صَنيعتُكَ
وإنْ كُنا اخترعنَاكَ.

نَحْنُ جاحدو الأيدي،
لا نُدِلُّ عليكَ سائلَكَ،
ولا نُؤشّرُ عَلَى وشمِكَ فينا

نَحْنُ خالقوكَ الكفَرَةُ
ناهبو أنفسنِا فيكَ،
مُنقذوقهَا بِكَ.

لا زَهوَ إِلَّا لَكَ،
مُنْتَصِراً،
كالهَواءِ،
عَلَى كُلِّ شَيءٍ

سيّدٌ كالغُبارِ
مُتألفٌ ومُتكيفٌ وصَلِفٌ
كحصى السَّواحِلِ مَلْمومةً فِي كفِّ العاصفة

يا صديقي،

هَذِهِ الأشرِعةُ الَّتِي تراها

لَيْسَت لِسُفُنٍ ضالةٍ

بل أَجْنِحةٌ لخطايانا

تَخفِقُ

لائِبةً

فِي عَتَمةِ الأَيام

خطايانا الَّتِي ننسَاها بِكَ

وتنسَانا بِالألمِ.

يا صديقي،

هَذِهِ المراسمُ تتَّشحُ بِهفواتِنا

هَذَا التِّرياقُ يُباهلُ بِأغلاطِنا،

ويَرسِنُ العَقلَ بِالتِيهِ.

لَكِنَّا نَفعلُكَ.

واضحونَ كخطوطِ اليَدِ،
غامضونَ كالأقدارِ،
ويائسونَ كَحِكمة.

أَيُّها الوَهْمُ، صديقي
خذْ مُراجعاتي للحَيَاةِ
وأعطني لحظةَ المسيرِ وئيداً
دونَ وصولِ.

كُلُّ أسمائِكَ أعرِفُها
لَكِنَّني أتحاشَاكَ.

أتعلَمُ؟

...

هل تَسمعُني؟

...

سيمرُّ الأمرُ رُغمَ كُلِّ شَيءٍ،
سنمرُّ جميعاً ولَنْ يَحدثَ فرقٌ فِي العَالَمِ،
لذلكَ
نَعتَادُ مراسِمَنا وإنْ كانتْ باهتةً،
لذلكَ نَمْشِي دونَ أن نُفكِّرَ بِالوصولِ،
لذلـكَ نَقْفِـزُ فِـي الهاويـةِ رُغمَ أننا مِـنْ دونِ أَجْنِحةٍ،
لذلكَ أَيْضاً
نَخْسِرُ بِضَراوةٍ ونبتسمُ.

نَفهمُ كُلَّ ذلكَ
فَمَنْ فَرَّطَ بِالمعرِفةِ انتهبَهُ الجُنونُ،
نعرِفُ
وتعرِفُ
بِأننا سنمرُّ جميعاً
دونَ أنْ يُحرِّكَ العَالَمُ حاجبيه.

خطاطة أخيرة

أنت،

يا مَنْ تَشْبَهُني

هل عرفْتَني الآن

دعِ الخطاطات

لا أُرِيدُ مركبَ العَالَم

فقط

قُدْني إليَّ.

الحياة بالنيابة

شِعر



علي محمود خضيّر شاعر وصحافي وكاتب عراقي، يعمل في مجال الصحافة، أصدر في العام 2010 مجموعته الشعرية الأولى «الحالم يستيقظ» (طبعتين) والتي نالت صدى نقدياً واسعاً في العراق، كما ترجمت أشعاره الى لغات أجنبية كالإنكليزية والفرنسية والفارسية، يقيم في مدينة البصرة.

«الحَياةُ بالنيابة» هو كتابهُ الشعري الثاني، كُتبت نصوصهُ بين عامي (2010–2012).

سيمرُّ الأمرُ رغمَ كلِّ شيء،
سنمرُّ جميعاً ولن يحدث فرقٌ في العالمِ،
لذلكَ
نعتادُ مراسمنا وإنْ كانت باهتة،
لذلك نمشي دون أن نُفكّر بالوصول،
لذلك نقفزُ في الهاويةِ رغم أننا مِنْ دون أجنحة،
لذلك أيضاً
نخسر بضراوةٍ ونبتسم.

نفهم كُلَّ ذلك
فَمَنْ فرّطَ بالمعرفةِ انتهبَهُ الجنون،
نعرِفُ
وتعرِفُ
بأننا سنمرُّ جميعاً
دونَ أنْ يُحرِّكَ العالمُ حاجبيه.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

نيل وفرات.كوم nwf.com
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN 978-614-01-0797-7
9 786140 107977

صورة المؤلف بعدسة أحمد محمود – تصميم الغلاف: سامح خلف – صورة الغلاف: Robert and Shana ParkeHarrison